٨

قصص الصحابة

أبو ذر الغِفاري (رضى الله عنه)

عماد الشافعى

المركز العربي الحديث

أبو ذرّ الغفارى

كَانتْ قَبيلةُ «غِفار» تَسكنُ الصَّحراءَ وتَعيشُ على رَعىْ الغَنم والإبل، حَيثُ المَراعى حَوْلَهمُ خصبةٌ، والأعشابُ على مَدِّ البَصر وفيرةٌ، وفجأةً انقطعَ عَنهمُ المطَرُ، وأصَابَهم قَحطٌ شَديدٌ، فهلكَ الزرْعَ وجَفَّ العُشبُ وكَادَتْ الأنعامُ تهلْكُ.

وظَنَّ أفرادُ القَبيلة أن رَبَّهم قَد غَضبَ عليهم، وكَانُوا يَعبدون صَنَماً يُسمى «مُناة» فَلجأوا إلى هَذا الوَثن يطلبونَ منه الغَوْثَ.. ولكن لا غَوْثَا فَالصنمُ المصنوعُ من الطَّمى تَشقَّق من شده الجفَاف وقسوة الصَّحراء وتَساقطَ على الأرض جُذَاذاً.

ويأس القَومُ من نُزول الغَيْث.. ومن هذا الإله الذى لا يَضرُّ ولا يَنْفعُ، والذى تَحطَّم أمَامهم عَاجزاً.

وخَرجَ بعضُ أفراد العَشيرة على رَواحلهم إلى سُوق مكةَ يَشْترونَ ما يَحتاجونَ إليه من طَعام وكِسَاء.

كانَ أبو ذرّ (جُنْدب بنُ جُنادة) يَتحدثُ مع أخيه أُنَيْس أمامَ الدَّار عندما مرَّ بهم أعرابِّى قَادمٌ من مكةَ يحمل بضاعةً على ناقته. فسألهُ أبو ذرّ:

- ما أخبارُ مكةَ يا صاحبى؟

قال الأعرابى: ظَهر فى مكةَ رجلٌ يَدَّعى أنهُ رسولُ الله وأنهُ يأتيه الخَبرُ من السَّماءِ.

أبو ذرّ: وهَل آمنَ به أحَدٌ؟

الأعرابىُّ: نعم.. آمنَ به بعضُ النَّاسِ، لكن قُريش تناصبهُ العداءَ.

التفتَ أبو ذر إلى أخيه أُنَيْس وقال: امَضِ إلى مكةَ يا أخى وعُدْ لنا بالخَبرِ اليَقينِ عن هذا الرجلِ الذى يَزْعُم أنه نبىُ.

وانطلقَ أُنَيْسٍ إلى مكةَ، واستمعَ إلى كلام النبَّى صلى الله عليه وسلم، وجَلَس أبو ذَرّ الغفارى على مَشارفِ القَريةِ ينتظرُ أخاهُ فى شَوْقٍ شَديدٍ، وبعد أيامٍ عاد أُنَيْسٍ مُستبْشراً.

فسألهُ أبو ذَرّ: ماذا رأيتَ وسَمعتَ فى مكةَ؟

قال أُنَيْسٍ: رأيتُ الرَّجلَ يأمرُ بمكارم الأخلاقِ ويقولُ كلاماً ما هو بالشِّعرِ.

أبو ذرّ: ثُمَّ ماذا؟!

أُنيس: ويَشهدُ أنه لا إله إلا الله، وأنه عبدُ الله ورسوله.

صاحَ أبو ذرّ: يبدو يا أخى أن الرَّجلَ على حَق، ولكنك ما شفيتنى مما أردتُ، سأمضى بنفسى إلى مكة لأسمعُ وأرى.

***

تَزَوَّدَ أبو ذر الغفارى باليسيرِ من الطَّعامِ والماء وانطلقَ إلى مكةَ ماشياً، واتخذ لنفسه مكاناً بجوار الكعبة يُصْغى إلى أحاديثِ القَومِ، ويتلفَّتُ حَوْله باحثاً عن صاحبِ الدَّعوةِ الجدَيده.

وعندما جاءَ المساءُ، افترشَ ثوبهُ واضْطجع مكانه.

وفى هذه السَّاعة مرَّ علىٌّ بن أبى طالبٍ فرأى الرجلَ فعرف أنه غريبُ فسألهُ: كأن الرجلَ غريبٌ؟

قال أبو ذَرّ: نعم.

فدعاهُ علىٌّ بن أبى طالبٍ إلى منزله، وبَاتَ علىٌّ لا يسألُ صَاحبهُ عن شَىءٌ. وفى الصَّباح انطلقَ أبو ذَرّ إلى أسواق مكةَ يستمعُ إلى كلامِ القَومِ، وهو يَخْشى أن يَسألَ عن صاحبِ الدِّين الجديدِ حتى لا يناله أحَدٌ بأذىً.

وجَاء المساءُ، فعادَ الغريبُ إلى مَضجْعه بجوار الكَعبة.

ومرَّ به علىٌّ بن أبى طالب فرآهُ على حاله التى كان فيها بالأمسِ. فظنَّ أن هذا الرجلَ لم يَعْثرُ بعدُ على ضالته. فدعاهُ إلى المبيتِ عندهُ، ولم يسألهُ أيضاً عن شَىءٍ.

وفى الصَّباحِ غادرَ أبو ذر الغفارى الدارَ إلى أحياء مكةَ وسُوقها يُصغى إلى ما يقولهُ النَّاسُ عن الدين الجديد، وانقضى النَّهارُ وذَهبَ إلى مكانه بجوار الكعبة. وقَبْلَ أن يتهيأ للنومِ مرَّ به علىٌّ بن أبى طالبٍ ودعاهُ للمبيت فى داره.

وفى الدَّارِ سألهُ علىٌّ: أيها الغَريبُ.. رأيتُكَ هُنا لا تَبيعُ ولا تَشْترى.. ألا تُحدثنى ما الذى جَاءَ بكَ إلى مكةَ؟ أخبرنى عَمَّ تبحثُ؟

قال أبو ذَرّ وقد اطمأن قَلْبهُ لصاحبه:

- أنا جُنْدبُ بن جُنَادةَ من قبيلة غفار، وكُنْيتى «أبُو ذَرّ»، سَمعتُ عن رَجُلٍ بمكةَ يدعو إلى دينٍ جَديد وأنهُ يأتيه الخَبرُ من السَّماء. وقد أتيتُ لأعرفَ الحقيقةَ.

سُرَّ علىٌّ بن أبى طالبٍ من كلام الرجل وقالَ:

- يا صاحبى إن محمداً رسولُ الله حقاً، أرسلُه اللهَ لهداية النَّاسِ وعبادةِ اللهِ وحدهُ وتَرْكِ عبادةِ الأصْنامِ.

قال أبو ذَرّ: وكيفَ ألتقى به؟

قال علىٌّ: سَنذهبُ إليه خُفْيةً، لأنى أخْشى عليكَ كُفَّارَ قُريشٍ، فإذا أصبحنا فاتْبعنى فى الطريقِ وأنا أحملُ قربةً، فإذا رأيتُ شَيْئاً أخافُ عليكَ منه تظاهرتُ بأننى أُريقُ الماءَ، وإن مضيتُ فاتْبعنى حتى نَدخلَ معاً على رسُولِ الله.

وانطلقَ علىٌّ وأبو ذَرّ حتى دَخلا على النَّبى، فقال أبو ذر:

- السَّلامُ عليكَ يا رسولَ الله.

قال النبى: وعليكَ السَّلامُ. . من أنتَ؟

- رَجُلٌ من غِفارٍ.

- ومتى كُنتَ هُنا؟

- كُنتُ هُنا منذْ ثَلاث.

- فمن كان يُطعْمكَ؟

- كان طعَامى ماءُ زمزْم.

فقال النبى : إنها مباركةٌ . . إنها طَعامُ طُعْمٍ .

وعَرض النبىُ الإسلامَ على أبى ذرٍّ الغفارى فأسلَم .

فقال له النَّبىُ : ارجعْ إلى قَومكَ فأخبرهُم عن الإسلامِ واكتْم أمْركَ عن أهلِ مكةَ فإنى أخْشاهُم عَليكَ .

قال أبو ذَرّ : والذَّى نفسى بيده لأصْرُخنَّ بها بَيْنَ ظَهرانيهم .

وخرجَ أبو ذَرّ حتى أتى الكعبةَ فنادى بأعلى صوته : يا مَعْشرَ قُريشٍ إنى أشهد أن لا إلَه إلا الله ، وأن محمداً رسُول الله .

فقامَ إليه القومُ يضربونهُ ضَرْباً مُوجعاً حتى طَرحُوه أرْضاً وسَالتْ منه الدماءُ . فصاحَ فيهمُ العبَّاسُ عَمُّ النَّبى ، ودفعَ الناسَ عنه . فتركوهُ ، ثم مَضى إلى بئْر زمزمَ يغسلُ وَجْههْ من أثرِ الدِّماء . وتوجَّه بعدها إلى بيت النَّبى ، فلما رآهُ النبى قال : ألم أنْصحكَ أن تُخْفى الآنَ إسلامكَ عن قُريشٍ؟

قال أبو ذَرّ : لم أعُدْ أخْشىَ يا رسول الله قُريشاً أو غَيرها .

وفى اليومِ التالى انطلقَ أبو ذَرّ الغفارى إلى الكعبةَ وصاحَ بأعلى صَوتِه :

- يا مَعْشرَ قُريشٍ، إنى أشْهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وأن مُحمداً رسولُ الله.

فقامَ أشرافُ قريشٍ إليه وهُم يقولون: هَذا الفَتى يتحدانا ويَغيظنا. وأوسَعُوه ضرباً حتى سَالتْ منه الدَّماءُ.

وهُنا مرَّ به العَباسُ عمُّ النبى فدفعَ النَّاسَ عنه قائلاً: وَيْلكمُ ألا تَعْلمون أنه من قبيلةِ غِفارٍ وأن طريقَ تجارتكمُ إلى الشَّامِ يَمرُّ عليهم؟!

وانتظرَ أبو ذَرّ فى مكةَ أياماً تعلَّم فيها أُصولَ الدِّين وحَفظَ بعض آياتِ القُرآنِ، ثُمَّ خرجَ من مكةَ إلى قبيلةِ غِفارٍ.

فسأله أخوه أُنيسٍ: ماذا صَنعتَ فى مكةَ؟

قال: أسلمتُ وصَدَّقتُ.

فأسلمَ أخوهُ أُنيسٍ، وأسلمتْ أمُهُ. وذَهبَ أبو ذرٍ الغفارى إلى سَيد القبيلةَ حيثُ يجتمعُ عنده القومُ وحدَّثهم عن رِحلته فى مكةَ، وأخبرهُم انه التقى بالنَّبى وأسَلْمَ.

فصاحَ القومُ: صَبَأتَ؟

فقالَ: بلَ هَدانى اللهُ إلى دينه.

قالوا: وآلهتُنا؟.. ودينُنا الذى وَجَدنا عليه آباءنا؟!

فقال: إنها أصنامٌ لا تضرُ ولا تنفعُ، أتذكرونَ يا قومُ أيامَ الجفافِ والقَحْطِ، ألم نَضْرع إلى الألهةِ ونُقدم لها الذبائح والقَرابينَ، هل كَشفتْ عنا الجفَاف وأنزلتْ المطرَ؟!.. كَلا.. بل إنها تَصدَّعتْ من قَسوةِ الحَرِّ.

وتركهم أبو ذرٍ فى تفكيرٍ وحَيرةٍ، فأسلَم سَيدُ القبيلة «خُفاف بن رحضةَ» ثم تبعهُ كثيرٌ من القومِ، حتى أسلمتْ قبيلةُ غِفار كُلُّها.

***

انتشر الإسلامُ فى المدينة، وانتصرَ النَّبىُ على المُشركينَ يومَ بَدْرٍ، ووقعتْ بعدها غزواتُ أُحُدٍ والخَندقُ، وكان أبو ذَرٍ لا يَزالُ فى غِفارٍ.

وذاتَ يومٍ قرَّر أبو ذرٍ الإنطلاقَ إلى المدينةِ لمؤازرةِ النبى ونُصرة الإسلامِ. فودَّع أخاهُ أُنيسٍ ومضى مُهاجراً إلى الله ورسوله.

كانَ أبو ذر الغِفارى مُلازماً للنَّبى بالنهارِ يَخدمهُ ويتعلَّمُ منه،

وفى المساءِ يَبيتُ فى المَسجدِ مع فُقراءِ المُسلمين.

خـرجَ أبو ذَرٍ مع النبى فى الشِـتـاءِ وكـان الوَرقُ يتـسـاقطُ مع الأشـجـارِ. أمـسكَ النَّبىُ غُـصْناً من شـجـرةٍ وراحَ يتـأملهُ والوَرقُ يتساقطُ منه ثُمَّ التفتَ إلى أبى ذَرّ وقال: يا أبا ذَر.

قال أبو ذَرّ: لَبيكَ يا رسُولَ الله!

قال النبىُّ: إن العَبَد ليُصلى الصَّلاةَ يُريدُ بها وجَهَ الله فتَساقطُ عنه ذُنوبُه كما يَتساقطُ هذا الوَرقُ عن هذه الشَّجرةِ.

***

ويخرجُ رسولُ الله والمسلمونَ لمُحاربة الرومِ، ويَسيرُ الجَيشُ فى طريقه إلى تَبُوك، ويعجزُ بَعيرُ أبى ذرّ عن مُسايرة الرَّكب، فينزلُ أبو ذَرّ عن بَعيرهِ الأعجف، يَحملُ متاعَهُ على ظَهْره ويَسيرُ فى أثرِ الجَيشِ. ويُعسكرُ جَيشُ المُسلمينَ فى تَبُوك، وينظرُ النبىُّ حَولهُ فلا يرى أبا ذَرّ. فيسألُ أصحابُه: أينَ أبو ذرِ الغفارى؟

فيقولُ النَّاسُ: تَخلَّفَ أبو ذر يا رسولَ الله!

فيقول النبىُ: دَعُوه فإنْ يَكُ فيه خيرٌ فسيلحقهُ الله بكم، وإن

يكنْ فيه غيرُ ذلكَ فقدَ أراحكمُ اللهَ منهُ.

وبينما المُسلمونَ يَدُقُّونَ خيامهم، ينظرُ أحدهُم فى الصَّحراءِ فيرى من بعيد رَجُلاً فيقولُ: يا رسولَ الله.. إنى أرى رَجُلاً يمشى على الطريق وَحْدهُ.

فيقولُ النبىُ: لعلهُ أبو ذرّ.

فلما اقتربَ الرجلَ تأمله القومُ وصاحوا بفرحةٍ: يا رسولَ الله، إنه والله أبو ذرِ الغفارى.

فيقولُ النبى: رَحمَ الله أبا ذرٍ، يَمْشى وحدهُ، ويَموتُ وحَدهُ، ويُبعث وَحْدهُ.

ويصلُ أبو ذر إلى رسولِ الله وقد أجْهدهُ المَسيرُ، وأنهكهُ الجُوعُ والتَّعبُ. فيلقاهُ النَّبىُ مُبْتسماً ويقولُ: «لقد غَفر اللهُ لكَ يا أبا ذَرٍ بكل خُطوةٍ ذَنْباً إلى أن لَقيتنى».

ويَفرُّ جَيشُ الرُّومِ عندما علمَ بمجىءِ جَيْش المُسلمين، ويعودُ النبَّى بالجَيش إلى المدينةِ وقد كَفَاهُم اللهُ القتالَ.

***

يَخرجُ النَّبىُ صلى اللهْ عليه وسلم ذات يومٍ إلى السُّوقِ ومعهُ أبو ذَرّ الغفارى، وفى الطَّريق يقولُ النبىُ لصاحبه: يا أبا ذَرّ إنكَ رَجلٌ صالحٌ وسيصيبكَ بلاءٌ بعدى.

فيقولَ أبو ذَرّ: فى الله؟

فيقولُ النبى: فى الله.

فيقولُ أبو ذَرّ دُون مُبالاة: مَرْحباً بأمر الله.

ويكونُ أبو ذر بعيداً عن المدينة عندما يصلُه نبأُ وفاة النَّبى صلى الله عليه وسلم، فيغشَاهُ حُزنٌ عَميقٌ وهَمٌّ كبيرٌ، وتَتحدَّرُ دموعُهُ وهو يرُرَدَّد: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعُونَ، كُلُّ شَئٍ هَالكٌ إلا وجَهه، تَركَنَا رَسُولُ الله وما يُحركُ طَائرٌ بجناحيه فى السَّماء إلا ذُكرَ لنا منهْ علماً.

ويَحملُ أبو ذرّ سَيْفَهُ ويخرجُ مع جَيْش خالد بن الوَليد لمُحاربة مُسَيلمةُ الكَذَّاب، ثُمَّ يتَزوجُ. وبَعْدَ فَتْرة تَلدُ زوجُتهُ بنتاً فيرحَلُ بأهله إلى الشَّام مُجاهداً فى سبيلِ الله.

وينتقلُ أبو بكرٍ الصِّديق إلى جِوارِ ربِّه، وتَؤُول الخلافةَ إلى عُمر

ابن الخطاب، فيلحقُهُ بالديوان فى الشَّام، ويَعيشُ أبو ذرّ هُناكَ زاهداً قَانعاً باليسير من الطَّعامِ والشَّرابِ والثِيابِ.

ويلتفُ النَّاسُ حوله فى المَسجد يتعلمون منه، وأثناءَ حديثه إليهم يدخلُ رسولٌ من أميرِ الشام ويقولُ: قد بَعثنى مَوْلاى إليكَ بثلاث مائة دينارٍ لتستعينَ بها على حَاجتكَ.

فيقولُ أبو ذر: عُدْ بها إليه وقُلْ له: لا حَاجَة لنا بها. فما لَنا إلا ظِلٌّ نتوارى به، وبعضُ الغنَم نأكلُ منها، وزوجةٌ صابرةٌ تصدقتْ علينا بِخدمتها.

***

ظَلَّ أبو ذَرّ بالشَّامِ حتى بلغَهُ نبأُ طعنِ أميرُ المؤمنين عُمر بخنجرٍ بينما هُو يُصلى الصُبحَ، وعندما رَجعَ إلى المدينة رأى عثمان بن عفان أميرَ المؤمنين يُولّى أبناءَ عمه وأقاربهُ المناصبَ، ورأى مظاهرَ المُلكِ والتَّرف والمُبالغة فى إنفاقِ الأموال، فاستولى عليه الأسَى والأسفُ، وراحَ يرفعَ صوتَهُ فى المسجد مُردِّداً ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

والتَفَّ النَّاسُ من حَوله، فاستدعاهُ عُثمان بن عفان وسألهُ:

- ما هَذا الذى بلغَنى عنك يا أبا ذرٍّ؟

- وما بلغَكَ عنى يا أميرَ المؤُمنين؟

- سَمعتُ أنَّكَ تُحرض النَّاسَ علىّ!

- كَيفَ ذلكَ؟!

- أنكَ لا تقــرأُ فى المسجــدِ إلا: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ . ﴾

- أو فى هَذا تحريضٌ على أميرِ المؤُمنين ، أمْ أن أمير المُؤمنين لأمرٍ ما يُريدُ أن يَمْنعنى من قِراءة كتابِ الله . . اعلمْ يا أميرَ المؤُمنين أننَّى مُثابرٌ على قِراءة كتابِ الله وتَعليم المُسلمينَ حَتى وإن أسْخَط هَذا أميرَ المُؤمنين!

صاحَ عُثمان: أُخْرُجْ . . أُخْرُج إلى الشَّامِ.

وخَرجَ أبو ذَرٍّ إلى الشَّامِ، وهُناكَ كَانَ مُعاويَةُ بن أبى سُفيانَ والياً على الشَّامِ، وكان يتصَّرفُ كأنه ملَكَ الأرضَ والمالَ والنَّاسَ.

والتفَّ الفُقراء ُ حَول أبى ذَرٍّ الغفارى وقَويتْ عَزائمهم. وخَشِىَ مُعاويةُ من ثورة الفُقراءِ، فأرادَ أن يَمنحَ أبا ذَرٍّ مالاً وأرْضاً

لعلَّه يمتنعُ عن دَعوتهِ وترديد الآيةِ القُرآنيةِ ﴿والذَّين يكنزونَ الذَّهبَ والفضةَ . . ﴾ .

لكن أبا ذَرٍّ رفضَ العَرْضَ، فكتبَ مُعاويةُ إلى أميرِ المُؤمنينَ عُثمان :

- أنْقذنى من أبى ذَرٍّ .

فردَّ عليه عُثمان بن عفانٍ : أرسِلْ أبا ذرٍ إلىَّ .

فعادَ أبو ذَرٍّ الغفارى إلى المدينة فى حراسةٍ مُشدَّدة، وعندما أُدخلَ على عُثمان بن عَفان قالَ : مَرْحباً وأهَلاً بأخى .

فقالَ أبو ذرٍّ : مَرحْباً وأهلاً يا أخى .

قالَ عُثمان : ما لأهلَ الشَّامِ يَشْكُون لسانكَ؟

قالَ أبو ذرٍّ : لقد كَنزَ النَّاسُ المَالَ فبشرتهُم بمكاوٍ من نارٍ .

عُثمان : كَذبتَ . . ولكنَّكَ تُريدُ الفتنةَ وُحبها، لقد قَلَّبتَ الشَّامَ عَلينا . ثُمَّ التفتَ لمن حَوْلَهُ وقال :

- أشيرُوا علَّى . . هذا الشَّيخُ يُريدُ أن يُفرقَ جَماعَة المُسلمينَ، إما أن أحْرقهُ، أو أقْتلهُ، أو أنْفيهُ من أرضِ الإسلامِ .

سكتَ عُثمانُ بن عفانٍ لَحظةً ثم قالَ: أخْتَر المكانَ الذى تَذْهبُ إليه.

فاختارَ أبو ذَرٍّ مكةَ، فرفضَ عُثمانُ. فاختار الشَّامَ، فرفضهَ، فاختارَ العراقَ، فرفضَ أيضاً. فقالَ أبو ذرٍّ:

- لا أُريدُ غيرَ هذه البلدان وإلاَّ فابعدنى إلى حَيثُ تَشاءُ.

فقالَ عثمانُ: إنى مُسَيِّرُكَ إلى الرَّبَذة (مكانٌ يبعدْ عن المدينة) وفى مَنْفى الرَّبذة وَسْطَ الصَّحراء الخالية، وتَحْتَ خيمة مُمزقة عَاشَ أبو ذرٍّ أيامَهُ الأخيرة هو وزوجتُه وابنهُ وابنتهُ، لم يكنْ يملكُ فى هذا القَفْرِ سوى غُنيمات قليلة يَرعْى بها فى النَّهار، وكان لَبنها هو زَادُ العائلة، اضافةً إلى ما يَنْبتُ فوقَ الكُثبان من أعْشاب، وبئر مَاء. ويَشْتَدُ بأبى ذرٍ المرضُ. وتبكى زوجتُه، فيسألُها:

- ما يُبكيْك؟

فتقولُ: ألا أبكى وأنتَ تموتُ فى هذه الصَّحراءَ غَريباً وَحيداً، ولا يُوجدُ من يقومُ بدفنكَ أو يُصلى عليكَ.

فيقول أبو ذر: أبشرى فإن خليلى عليه الصلاةُ والسَّلامُ وَعَدنى أن يَشهدَ مَوْتى جماعة من المؤمنين، فأبصرى الطَّريقَ.

وترى الزوجةُ رَكْباً قادماً، فتُشيرُ إليهم، وكانَ بينهم عبدُ الله بن مسعودٍ.

وتَصْعُد روحُ أبى ذر الغفارى إلى بَارئها وعلى شفتيه بَسْمةُ إيمانٍ ورِضىً، ويكفُنهُ أحَدُ الأنْصارِ، ويُصلى عليه عبد اللهُ بن مسعودٍ. ويُودِّعهُ صَديقهُ وهو يُردِّدُ:

- صَدَق رسولُ الله.. يَمشِى وَحْدهُ، ويَموتُ وَحدهُ، ويُبعْثُ وَحَدُه.

تمت بحمد الله تعالى